

## ﴿ .. حَنِيفاً .. ﴾، ﴿ .. حُنَفَاءً .. ﴾. (٢)

حسن الحاج

### ملخص البحث:

في عالم بعيد عن توحيد الله تعالى، مشتت بين عقائد وثنية ومظاهر طبيعية، راحوا يتدينون بها اعتقاداً وولاءً وعبادةً، فشكل ذلك مخاضاً عسيراً للبشرية في فكرها الديني ومواقفها نحو السماء، التي اضطربت، ولم تجد لها قراراً تركن إليه، في هكذا عالم مصاب بداء الشرك، متدينٌ بغير الله تعالى، انبثقت الحنيفية الإبراهيمية؛ لتأخذ به نحو الحق والطمأنينة، والهداية والنور، وأنَّ الإنسان مهما غادر يميناً أو شمالاً، لا يستقيم أمره، ولا يهدأ قلبه، إلاَّ بإتباع الوحي الإلهي، والانقياد لشرع الله وكتبه ورسله، وقد ظلت الحنيفية ملّة السماء ومشروعها الخالد منذ رائدها نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام؛ لتكتمل برسول الله محمد ﷺ ولتبقى حقيقة الحنيفية والحنفاء وسيرتهم دليلاً على تطلُّع البشرية في تاريخها الطويل إلى بارئها، تنشُد الرشد وترفض الغي.

وقد توفرت هذه المقالة بحلقتيها الأولى وهذه الثانية على ( الحنيفية ) لغةً واصطلاحاً وعلى نشأتها ومرآحلتها التاريخية وبعض أتباعها من زمن نبيِّ الله إبراهيم وحتى الخاتم

محمد صلوات الله عليهما حين توجت برسالته الخاتمة ...

\* \* \*

إِنَّ مَنْ تَأْمَلُ جَمِيعَ تِلْكَ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرْتُ فِيهَا مَفْرَدَاتَا ﴿...حَنِيفًا...﴾، ﴿...حُنْفَاءً...﴾ فَإِنَّهُ يَدْرِكُ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هِيَ دِينُ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَالِاسْتِسْلَامِ الْمُنْقَطِعِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَعَ هَكَذَا تَوْحِيدٍ وَهَكَذَا اسْتِسْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا مَكَانَ لِلشَّرْكِ وَالْكَفْرِ وَمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا هُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعِهِمْ، وَاعْتِقَادِ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ، حَتَّى خُتِمَتْ تِلْكَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَرِسَالَاتِهِمْ بِالْخَاتَمِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَخْتَلَفُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ إِلَّا فِي الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ، أَمَا الْإِعْتِقَادُ وَالِإِيمَانُ بِاللَّهِ، فَهَمَّ جَمِيعًا عَلَى التَّوْحِيدِ...

وبالتالي:

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...﴾، إِنَّ مَنْ يُعْرَضُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَرْغَبُ فِي غَيْرِهَا، فَقَدْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِي حِمَاةٍ لَا تَسْتَطِيعُ مَعَهَا تَمْيِيزَ مَا يَنْفَعُهَا مِمَّا يَضُرُّهَا، وَهُوَ مَنْ جَهَلَ قَدْرَهَا، وَأَذَلَّهَا وَأَهَانَهَا بِتَرْكِ سَبِيلِ عَزِّهَا وَكَمَالِهَا وَإِسْعَادِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَبِالتَّالِي يَكُونُ بِإِعْرَاضِهِ ظَالِمًا لِنَفْسِهِ مَسِينًا لَهَا مُسْتَحَقًّا لِلْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ...

وأما الآيتان الأخريتان من سورتي الحج والبيئتين، فقد تضمنت كل منهما ﴿حُنْفَاءً﴾:

الأولى:

﴿حُنْفَاءً لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾<sup>١</sup>.

جاءت ﴿حُنْفَاءً لِلَّهِ﴾ وقد نصبت على الحال؛ فهي حال مؤسسة من ضمير

اجتنبوا في الآية السابقة: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ...﴾. ابن عاشور: ﴿حُنْفَاءٌ﴾ حال من ضمير ﴿أَجْتَنِبُوا﴾ أي تكونوا إن اجتنبتم ذلك حنفاء لله، جمع حنيف وهو المخلص لله في العبادة، أي تكونوا على ملّة إبراهيم حقاً، ولذلك زاد معنى ﴿حُنْفَاءٌ﴾ بياناً بقوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

وهذا كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>١</sup>. والباء في قوله: ﴿مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ للمصاحبة والمعية، أي غير مشركين معه غيره. ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ...﴾.

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ حال مؤكدة منه أيضاً...<sup>٢</sup>

جاءت هذه الآية ضمن سياق آيات عديدة سبقتها ولحقتها (٢٥ - ٣٧) أغلبها يتحدث عن البيت الحرام ونشأته وتطهيره ودوره ومنزله، وأذان إبراهيم في الناس بالحج، وآداب الحج وأحكامه ومناسكه وأهدافه ومنافعه؛ لتصف حجاج بيت الله الحرام بأنهم ﴿حُنْفَاءٌ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ مائلون عن الشرك كله، مستقيمون على التوحيد، مخلصون صادقون في عقيدتهم، وإنما منزلة ما أعظمها! لا أدري؛ قد لا ينالها إلا ذو حظّ عظيم، وذو منزلة عالية رفيعة في إيمانه، نسأله تعالى التوفيق لذلك! ثم راحت الآية تصور حال من يشرك والمشهد العنيف الذي يؤول إليه أمره...

الشيخ الطبرسي: ﴿حُنْفَاءٌ لِلَّهِ﴾ أي مستقيمي الطريقة على أمر الله، مائلين عن سائر الأديان وهي نصب على الحال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ أي حجاجاً مخلصين، وهم مسلمون موحدون، لا يشركون في تلبية الحج به أحداً.

ثم ضرب سبحانه مثلاً لمن أشرك فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ

١. النحل: ١٢٠.

٢. انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه؛ آلدرويش، وانظر في فوائده الحال المؤسسة والحال المؤكدة

٦: ٤٢٨ - ٤٣٠؛ التحرير والتنوير: الآية.

السَّمَاءِ ﴿أَي سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ﴾ أَي تَأْخُذُهُ بِسُرْعَةٍ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَرِيدُ تَخَطَّفَ لَحْمَهُ ﴿أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ﴾ أَي تَسْقُطُهُ ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أَي بَعِيدٍ مَفْرُطٍ فِي الْبَعْدِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: أَعْلَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ بَعْدَ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ كَبَعْدَ مَنْ خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ، فَذَهَبَ بِهِ الطَّيْرُ أَوْ هَوَتْ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ. وَقَالَ غَيْرُهُ: شَبَّهَ حَالَ الْمَشْرُوكِ بِحَالِ الْمَهَاوِي مِنَ السَّمَاءِ فِي أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ حِيلَةً فَهُوَ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ.<sup>١</sup>

## الثانية:

﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾.<sup>٢</sup>

﴿حُنَفَاءَ﴾ حَالٌ ثَانِيَةٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿لِيَعْبُدُوا﴾ وَقَدْ خَصَّ هَذَا الْخُطَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ. الشَّيْخُ الطَّبْرَسِيُّ: ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ مَا أَمَرُوا بِهِ فِي كِتَابِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أَي لَمْ يَأْمُرْهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا لِأَن يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يَشْرُكُونَ بِعِبَادَتِهِ، فَهَذَا مَا لَا تَخْتَلِفُ فِيهِ مِلَّةٌ وَلَا يَقَعُ فِيهِ تَبَدُّلٌ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لَا يَخْلَطُونَ بِعِبَادَتِهِ عِبَادَةَ مَا سِوَاهُ ﴿حُنَفَاءَ﴾ مَائِلِينَ عَنْ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ؛ مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ بِالرَّسْلِ كُلِّهِمْ.. ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أَي وَيَدَاوِمُوا عَلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَيَخْرُجُوا مَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ مِنَ الزَّكَاةِ ﴿وَذَلِكَ﴾ يَعْنِي الدِّينَ الَّذِي قَدَّمَ ذَكَرَهُ ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أَي دِينُ الْكُتُبِ الْقِيَمَةِ.. وَقِيلَ: دِينُ الْمِلَّةِ الْقِيَمَةِ وَالشَّرِيعَةِ الْقِيَمَةِ، قَالَ النَّضْرُ بْنُ شَمِيلٍ: سَأَلْتُ الْخَلِيلَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: الْقِيَمَةُ جَمْعُ الْقِيَمِ وَالْقِيَمِ وَالْقَائِمِ وَاحِدٌ، فَالْمُرَادُ ذَلِكَ دِينُ الْقَائِمِينَ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ..

الرازي ذكر ثمانية أقوال عن ﴿حُنَفَاءَ﴾ وله تفصيل كثير نافع، نكتفي بخلاصة

١ . مجمع البيان : الآية .

٢ . البينة : ٥ .

اثنين منها، الأول: متبعين دين إبراهيم عليه السلام، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>١</sup>. الثاني: مستقيمين والحنف هو الاستقامة،.. ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾<sup>٢</sup>. ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾<sup>٣</sup>.

وبما أنَّ الحنيفية رافقت المسيرة الإبراهيمية، فقد أطلقت على نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، أول مؤسس للحنيفية وداع لها، وأطلقت على شريعته وعلى الذين اتبعوه؛ ونظراً لأنَّ أكثر الشرائع التي ظهرت بعد إبراهيم تنتمي في جذرها إلى الديانة الإبراهيمية، فقد وصفت بالحنيفية، وانتشرت هذه الصفة بين أتباع هذه الشرائع، فهم: أحناف وحنفاء ومتحنفون..

ومما يؤسف له أنها لم تنجو مما أصاب الساحة يومذاك من انحراف وعبادة أوثان، ففسدت النفوس، وتلوّثت العقول، وراح كلُّ طرف سواء أكان فرداً أو جمعاً يرى أنه يمثل الحنيفية، بل هو هي دون غيره، غير مباليين بما أصابهم من كفر وشرك، وتجاوزات لحدودها وأحكامها؛ حين أدخلوا فيها ما ليس منها، مما جعلها تتنافى مع الحنيفية الحقّة، [حتى أن عبدة الأوثان في الجاهلية قبل البعثة المباركة لرسول الله صلى الله عليه وآله كانوا يقولون: نحن حنفاء على دين إبراهيم] وصاروا يتكاثرون ويتفاخرون بها، ويرون عدم الاتصاف بها عيباً كبيراً.. ولكنه مجرد زعم لا حقيقة له؛ لتعارضه مع قيم الحنيفية. فإنَّ إبراهيم عليه السلام ﴿كَانَ حَنِيفًا﴾ وكلُّ من يدعي من الناس أنه حنيفٌ، فلا بدَّ أن يترسّم مبادئ إبراهيم، ويخطو خطواته، ويتمسك بقيمه المبنية على توحيد الله تعالى والمنبثقة منه، وإلا فهي مجرد دعوة لا حقيقة لها ولا أساس، ومجرد مزاعم لا غير،

١ . النحل: ١٢٣ .

٢ . فصلت: ٣٠ .

٣ . انظر التحرير والتنوير؛ ومجمع البيان؛ وتفسير الرازي، سورة البينة؛ الآية: ٥ .

بمعنى أن ليس لأحد ادعاء الحنيفية وأنه حنفيٌّ، إلا إذا كان على منهج إبراهيم فقط لا على منهج غيره، ولم يكن مكتفياً ببعض ما جاء به إبراهيم، يؤمن ببعض ويكفر أو يترك بعضاً..

وبكلمة واحدة أن المتفق عليه حتى عند هؤلاء؛ هو أن الحنيفية، جذرها الحقيقي هو ما جاء عن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، اللذين تعود إليهما الحنيفية الحقّة لا لغيرهما أبداً، ويُرجع إليهما الحنفاء عقيدتهم بالحنيفية... وإن طرأ عليها نقص هنا وزيادة هناك.. وإن تعبدوا بشيء منها.. بسبب أهواء تتبع، ومصالح ترتجى،.. وبالتالي تكون الحنيفية التي تُدعى غير واضحة بل مملوءة بالشوائب..

حتى جاءت البعثة النبويّة المباركة؛ لتضع الناس على المنهج الصحيح للحنيفيّة، ولتصحح ما أصاب علاقتهم بها من بدع وعقائد باطلة بسبب بعدهم التاريخي عن منابعها، وابتلائهم بأمراض ساحاتهم، وآفات القرون المتتالية..، فغدا كلُّ من يؤمن بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله حنيفاً، بل وراحوا يسمّون كلاً من الرسول صلى الله عليه وآله ومن آمن به بصدق، واتبعه بإخلاص حنيفاً مسلماً؛ ولتمسكه صلى الله عليه وآله بالديانة الإبراهيمية، ولأنه صلى الله عليه وآله المتفق سلوكاً وسيرةً مع مبادئها، ولأنه يدعو لها، ويُشيد بها، ويدافع عنها حتى غدت شريعته هي المصداق الأسمى للحنيفيّة، حتى أنها وصفت بأنها الشريعة الحنيفيّة الخاتمة! وهكذا كلُّ من رفض الشرك بأنواعه، وتمسك بقيم الحنيفيّة ومبادئها الحقّة، القائمة على التوحيد الخالص، والتي أسسها نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، وراح يدعو الناس إليها، فهو من الحنفاء، وهذا ميزان حقّ ينفعنا في معرفة الحنفاء سواء أكانوا قبل البعثة النبوية أم بعدها، فأهل الكتاب وإن زعموا انتفاءهم لها، لكنهم لو ثابوا الحنيفيّة الحقّة بشركهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ \* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا

لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ<sup>١</sup>.

وكذا غيرهم من قبائل قريش من أهل مكة مع كونهم مشركين ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾<sup>٢</sup>. كانت تحترم الحنيفية وتتصف بها، وتشرف بالانتساب إليها، وتكسب بذلك وجاهة جعلت لها منزلة اجتماعية كبيرة، وحققت لها مصالح كثيرة، وكانت عملياً تدين ببعض ما جاء به إبراهيم من شرائع مخصوصة من حج البيت والحِتان وغيرهما، إلا أنها تعمل ما يُنافيها بشركها، فينطبق عليها، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾<sup>٣</sup>.

هذا الداء الذي ابتليت به حتى الساحة المؤمنة بعد البعثة النبوية، وما زالت... والأخطر أنه راح بعض يدافع عن مصاديق هذا البلاء، بل ويجهد نفسه في إيجاد تبرير أو غطاء شرعي له من هنا وهناك، بدل أن يُحذّر المسلمين من هذا الشرك، ويُجرّتهم إلى نبذِهِ، ويدعوهم إلى الإخلاص لله تعالى، فهو روح التوحيد، وأساس الدين، بأن يقصد العبد بعمله وعبادته وجه الله عزّ وجلّ فقط!!

فمشركو قريش ﴿...أَتَّخِذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾<sup>٤</sup>. اتخذوا من الحجارة ومن غيرها أولياء، وهم يعلمون أن ما عدا الله تعالى لا يضرُّ ولا ينفع، لكنهم وجدوا آباءهم هكذا يفعلون، فهم على مذهبهم سائرون.. فكانوا مخالفين بسيرتهم ومعتقدهم ﴿الَّذِينَ الْخَالِصُ﴾ الذي هو أساس الحنيفية الإبراهيمية، التي يكون أتباعها ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه؛ كما هو حال إبراهيم عليه السلام، المقبل على الله تعالى والمعرض عن غيره؛ فهو قدوتهم!

١. التوبة: ٣٠-٣١.

٢. النحل: ٥٧.

٣. يوسف: ١٠٦.

٤. الزمر: ٣.

الدكتور العلي: والذي يفهم من القرآن الكريم، هو أنَّ الحنفاء هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام، فلم يكونوا من المشركين، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَأَنَّ قَدْوَتَهُمْ فِي ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ. ويلاحظ أنَّ لفظة «مسلم» استعملت في مرادف ومعنى لفظة «الحنيف»، وأنَّ إبراهيم هو أبو وأول المسلمين. وقد وصف الإسلام بأنه دين الله الحنيف، والدين الحنيف، وأنَّ الشريعة الإسلامية، هي الحنيفية السمحة السهلة، وذلك تمييزاً لها عن الرهبانية المتعصبة...<sup>١</sup>

إذن؛ فمفهوم الحنيفية، مبادئ توحيدية خالصة، وقيم عالية، ومنظومة مفاهيم وأحكام وأخلاق صاغتها السماء، وبذل إبراهيم جهوداً عظيمة وتحمل من أجلها الكثير الكثير؛ لتبليغها والدعوة إليها، وقلع ما عداها من النفوس... وهذا المفهوم كأى مفهوم آخر في التنزيل العزيز، له مصاديق، وأصدقها وأفضلها هم الذين اتبعوا إبراهيم عليه السلام في مشروعه المبارك هذا، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم بإخلاص من الصالحين، وهم فريق مبارك لا ريب في اتباعهم هذا، وأما غيرهم فإنه لأمر ما أظنُّ أنَّ هناك من يلتزم به قبل البعثة النبوية، فيعتزل الأصنام ويتعبد كما تعبد إبراهيم ومن تبعه، ويسير بسيرته قيماً تتبع وأحكاماً لا يُجاد عنها، فيكون حنيفياً بحق على ملَّة إبراهيم عليه السلام، نعم قبل البعثة النبوية الشريفة، فالحنيفية لجمالها وجلالها، ولما فيها من وجاهة كانوا في الجاهلية يتسمون بها، ويجنون الاتصاف بها، ولكن دون التمسك بجوهرها، إما جهلاً بها، أو أخذوا بشيء منها وبما طرأ عليها من تحريف، فخلطوا بينها وبين ما أضيف إليها أو أنقص منها بحكم تعاقب الأزمان والأعراف والأهواء، أو للجمع بينها وبين ما يتغون من عرض الحياة الدنيا.. حتى

١ . انظر د. جواد علي في المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الفصل ٧٥.





لكننا نجدهم وقد ذكروا أنَّ هناك في الجاهليَّة من يتصف بكونه حنيفاً، وأنه من الحنفاء، وأنه على الحنيفيَّة الإبراهيميَّة، وأنه يدين بشريعة نبيِّ الله إبراهيم ونبيِّ الله إسماعيل عليهما السلام في الألوهية والتوحيد، والإيمان بالبعث، واليوم الآخر، وأنَّ فيهم من يُبشِّر أنَّ رسولاً سيبعث في آخر الزمان، ويخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور... يقول د. شوقي ضيف: ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد، وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحنفاء، وكانت تشكُّ في الدين الوثني القائم، وتلمس ديناً جديداً، يهديها في الحياة...

حتى صاروا طائفة وهم (الحنيفيون) يُعرفون بذلك، وقد ذكرتهم أو ذكرت عدداً منهم المصادر التاريخيَّة والأدبيَّة، وعلماء التفسير والأخبار، ولأنَّ ما ذكره عنهم كثير، فقد دونوا لهم أشعاراً ووصايا وأقوالاً وحكمًا كثيرة، نكتفي منها بالقليل، ولكن بعد أن تتمَّ الإشارة إلى ما قد يصحُّ تسميته بتجمُّع مكِّيٍّ ضمَّ كثيراً من جهاء قريش، وتمخَّض عن أربعة شاء حظُّهم أن يُذكروا دون غيرهم، ينتسبون إليها، كانوا نواةً لإعلان موقف إزاء ما يعبدون، فعن ابن إسحاق (ت ١٥٢ هجرية) وعنه ابن هشام (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هجرية...) في السيرة النبويَّة، ويبدو أنَّ روايته هي الأقدم، والأكثر تفصيلاً لما دار من نقاش وجدل بين المجتمعين؛ أنه قال: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويُديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كلِّ سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا، وليكنتم بعضكم على بعض؛ قالوا: أجل! وفي خبر قال بعضهم لبعض: تعلّموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطروا دين أبيهم إبراهيم؛ ما حجر نُطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضرّ ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم (ديناً)، فإنكم والله ما أنتم على شيء! فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفيَّة، دين إبراهيم!

١. تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي ١: ٩٧؛ السيرة النبوية، لابن هشام ١: ٢٢٢، وغيرهما.

## فمن هم هؤلاء؟

الذين خالفوا عرب الجاهلية قبل الإسلام؛ أنكروا الوثنية، رفضوا عبادة الأصنام، تفرّقوا في البلاد يلتمسون الحنيفية! إنهم: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وعبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كعب بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمه، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب عمّة النبي ﷺ، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن عبد الله بن قُسط بن رباح بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي.

ولكن؛ لا أدري، أين يلتمسونها، وهي في دارهم أو قرية منهم، هي في مكة، مهد الحنيفية ولادةً ونشأةً وامتداداً، ومنها وصلت إلى الطائف ويثرب و..؟

ونظراً لأنّ بعض هؤلاء الذين تفرّقوا، وغيرهم ممن وصفوا بأنهم حنفاء، وهم قلة، كانوا ممن يُجيد القراءة والكتابة، مما سهّل عليه البحث عما يُريد، ولما تنصّر، درس كتب أهل الكتاب، ونشط في الاستماع لما يقوله أهل التوراة والإنجيل، فعرفوا أنّ تلك الكتب وهذه الأقوال قد تضمّنت البشارة بنبيّ يظهر، وهذا زمانه، فصاروا يترقّبون ظهوره، ويُبشرون به.. وليس هذا ببعيد، فواحدة من الأدلة على صحّة بعثة رسول الله محمد ﷺ ما تحدّث به القرآن الكريم من أنّ هناك في التوراة والإنجيل ما يحمل اسمه أو صفاته ﷺ كتابةً أو بشارةً، فولدت عندهم معرفةً تفصيليةً كمعرفتهم لأبنائهم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. ١

وكان ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ

لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

حتى أن رحمة تعالى وسعت ﴿... الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٢.

فأتباع الديانتين اليهودية والنصرانية وبالذات أحبارهم ورهبانهم يعلمون ذلك ويعرفونه، حتى أنهم كانوا يرتقبون أن ينتصروا به على من سواهم؛ والتنزيل العزيز ذكر هذا عنهم والأخبار: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٣.

فقبل بعثته المباركة كان أهل الكتاب ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يدعونه تعالى أن يرسل إليهم الرسول المنتظر، فينتصروا به على مشركي العرب. فلما جاء رسول الله ﷺ كفروا به وبما أنزل عليه من القرآن.

فعن ابن عباس أنه قال: كانت اليهود يستفتحون أي يستنصرون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، ولم يكن من بني إسرائيل كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل الشرك، وتصفونه وتذكرون أنه مبعوث، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير:

١. البقرة: ١٤٦.

٢. الأعراف: ١٥٦-١٥٧.

٣. البقرة: ٨٩.

ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. وَعَنْهُ أَيْضاً: كَانَتْ يَهُودُ خَيْرٍ تَقَاتَلُ غُظْفَانَ، فَكَلِمَةُ التَّقْوَا هُزِمَتْ يَهُودَ خَيْرٍ، فَعَاذَتْ يَهُودُ بِهَذَا الدُّعَاءِ وَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِحَقِّ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي وَعَدْتَنَا أَنْ تَخْرِجَهُ لَنَا فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِلَّا نَصَرْتَنَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَكَانُوا إِذَا التَّقْوَا دَعَوْا بِهَذَا الدُّعَاءِ، فَهَزَمُوا غُظْفَانَ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ كَفَرُوا بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ بَكَ يَا مُحَمَّدُ، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَعَنَهُ اللهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وقال السدي: كانت العرب تمر بيهود فيلقون منهم أذى، وكانت اليهود تجد نعت محمد في التوراة، ويسألون الله أن يبعثه فيقاتلون معه العرب، فلما جاءهم محمد ﷺ كَفَرُوا بِهِ حَسْداً، وَقَالُوا: إِنَّمَا كَانَتْ الرِّسَالُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَا بَالُ هَذَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ.<sup>١</sup>

### ورقة بن نوفل بن أسد

ابن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، فهو ابن عم السيدة أم المؤمنين خديجة الكبرى رضوان الله تعالى عليها؛ بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشية الأسدية. ذكر في ترجمته أنه كره عبادة الأوثان، وما كانت عليه قريش من الضلال، وكان واحداً من أربعة، خرجوا بحثاً عن دين غير دين مشركي قريش وعبدة أصنامها، وتوجه إلى الشام، لا أدري لم اختار الشام؟ فلعله سمع برهبان مازالوا على دين نبي الله عيسى عليه السلام، أو لأنه ذو معرفة بدين النصرانية، ولهذا الدين هو في نفسه حتى كان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب، يقول ابن إسحاق: فأما ورقة بن نوفل فاستحکم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علماً من أهل الكتاب. وقال عنه الذهبي: وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان

١ . مجمع البيان، للطبرسي؛ أسباب النزول، للواحدي: الآية .

يكتب الخط العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً  
قد عمي.

إذن أعجبه دين النصرانية فتنصّر هناك، وفي قول صار واحداً من الخنفاء، الذين  
مالوا من الشرك وعبادة الأصنام ومن التقرب إليها إلى الخنيفية، وأسندوا له أخباراً  
وبشائر منها:

... وكان قد قرأ الكتب كلها وكان عالماً حبراً وكان يعرف صفات النبيّ الخارج في  
آخر الزمان، وكان عند ورقة أنه يتزوج بامرأة من قريش تكون سيدة قومها وأميرة  
عشيرتها تساعد وتعاضده وتنفق عليه مالها، فعلم ورقة أن ليس بمكة أكثر مالاً  
من خديجة؟، فرجا ورقة أن تكون ابنة أخيه خديجة، وكان يقول لها يا خديجة سوف  
تتصيلن برجل يكون أشرف أهل الأرض والسماء، أو فيه شرف الدنيا ونعيم الآخرة.<sup>١</sup>  
ومنها: أنه سيكون في هذه الأمة نبيّ، وأنه قال لخديجة، بعد أن حدّثته عما ذكر لها  
غلامها ميسرة عن رسول الله ﷺ من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان  
يظلاله: لئن كان هذا حقاً يا خديجة، إنّ محمداً لنبيّ هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن  
لهذه الأمة نبيّ ينتظر، هذا زمانه، فجعل ورقة يستبطن الأمر ويقول: حتى متى؟  
وذكر واه في ذلك شعراً:

لججتُ وكنْتُ في الذكرى لجوجا	لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف	فقد طال انتظاري يا خديجا
بيطن المكتّين على رجائي	حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبرتنا من قول قس	من الرهبان أكره أن يعوجا
بأنّ محمداً سيسود فينا	ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور	يقيم به البرية أن تموجا

١. بحار الأنوار، العلامة المجلسي ١٦ : ٢١ عن أبي الحسن البكري في كتاب الأنوار .



ورقة بن نوفل بن أسد، ولآل الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، فانبرى لذلك أبناؤه وأحفاده كعروة وهشام بن عروة، ومولى آل الزبير؛ إسماعيل بن أبي حكيم، أو أيدٍ معادية لدعوة رسول الله ﷺ وقرآنه المبارك، فجعلت ورقة بطلاً راحت ابنتُ عمّه أم المؤمنين خديجة تستعين به على ما آل إليه أمرُ زوجها رسول الله ﷺ بعد أن عاد إليها من غار حراء، وقد هبط عليه جبرائيل في الغار، وتركه في هلع واضطراب حتى نسبوا إليه ﷺ أنه قال: «فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَطْرَحَ نَفْسِي مِنْ حَالِقِ مَنْ جَبَلٍ» لولا خديجة وابن عمّها ورقة بن نوفل ساعده حتى أذهبها عنه ما كان فيه من قلق ورعب، قولي له: (فليثبت) وكان ورقة ذلك المتنصر المهرم الأعمى، يُثبت قلب رسول الله ﷺ، بأن يزيل منه كل ما زرعه فيه جبرائيل من خوف واضطراب، ويُبعده عما تلبس عليه من وساوس شيطانية، وأن ما هو فيه لا علاقة له بالأجنة بل هو وحي ونبوة، وإن بشرته هذه المرويات بكونه نبياً، لكنّه وحسب هذه الأخبار، لا يستطيع أن يميز بين ما هو وحي إلهي وما هو وساوس شيطانيّ.

وقد غفل هؤلاء الرواة ومن تبعهم، إن لم أقل غير هذا، أولاً عن أن الله سبحانه وتعالى ما إن يرسل رسولاً إلاّ وهو في قبضته تعالى، يعلم ما بين يديه وما فيه وما حوله، ويظهره على ما يشاء من غيبه، ويحيطه برصد يُراقبونه، يجرسونه من أي وسوسة شيطانية أو نفسية، ومن كل ما قد يعترضه من ضعفٍ بشريٍّ أو تردّد، أو خطأٍ وسهوٍ ونسيان .. وأن النبي ﷺ إذا بعث إليه الملك بالوحي، بعث معه ملائكة يجرسونه من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه من الجنّ، ومن أن يتشبه الشيطان له على صورة الملك، فلا يترك النبيّ الجنّ وشيطان، إنه رصد سماويّ لا يغلبه أو يخترقه شيءٌ أبداً، كل هذا من أجل أن يؤدّي رسالة السماء وحجّتها على الناس جليّةً كاملةً غير منقوصة .. وهذا ما نجده في المقطع القرآني ٢٦-٢٨ من سورة الجنّ:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا \* إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا \* لِيَعْلَمَ أَنْ قَدِ ابْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ



وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿١٠﴾.

وثانياً عن مدى الإساءة إلى مقام نبوة هي موضع اختيار السماء وتسديدها، فجعلت من ورقة معرّفاً لرسالة السماء، منقذاً لنبيّ اصطفاه الله تعالى لرسالته، وأعدّه لها خير إعدادٍ، واصطنعه لها، شأنه شأن أنبيائه السابقين، وكما أوحى إليهم أوحى إليه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالتَّيِّبِينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾.

فنبىُّ الله إبراهيم عليه السلام، الذي ما ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ﴾ حتى كان مطمئناً، لم يصبه اضطراب ولا هلع، حين ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ونبيُّ الله موسى عليه السلام، الذي كان يعلم بنبوته ورسالته، واستقبلها بهدوء وسكينة وهو يدعو الله تعالى، ويسأله تسديده في مهمته هذه، ويستجيب الله له كما جاء في سورة طه: ٢٥ - ٣٦:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي \* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي \* وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي \* يَفْقَهُوا قَوْلِي \* وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِّنْ أَهْلِي \* هَارُونَ أَخِي \* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي \* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي \* كَيْ نَسَبِحَكَ كَثِيراً \* وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً \* إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً \* قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

وهكذا من بعده نبيُّ الله عيسى بن مريم عليهما السلام؛ ذلك العبد المطمئن الهادئ في مهده، يُبشِّرُ بنبوته كما في سورة مريم: ٣٠ - ٣١: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا \* وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾. فرسول الله ﷺ إن لم يكن أفضلهم، وهو كذلك، فهو لا يقلُّ أهمية من أولئك الأنبياء والرسل، فلماذا يُرعبه جبرائيل ولم يُرعبهم، والوحي هو الوحي، حتى بقي هذا الرعب ملازماً له ﷺ: «بينما أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء فرفعتُ بصري،

فإذا الملك الذي جاءني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ، فقلتُ: زملوني زملوني...؟! فما بال هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى؟! كما يُسميه ورقة، لم يعرفه رسول الله ﷺ وكان يلقي في نفسه الخوف والفرع؟! وكان نبوته ﷺ ورسالته ﷺ لا يكتب لها الكمال إلا بإلقاء الرعب في قلبه وبإخافته، وورقة يُزِيل ذلك عنه، ويُبين له حقيقة ما هو فيه بقوله: والذي نفسي بيده، إنك لنبِيُّ هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبه وتؤذِنه وتُخَرِّجَه وتُتَقَاتِلَنه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصُرَن الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله!! هادئ البال، مطمئن الحال..

هذا فضلاً عن أنه ﷺ كان ذا بصيرة وكان على بينة من ربه، فأين هؤلاء الرواة ومن تبعهم من المفسرين من البصيرة (في الآية ١٠٨ يوسف) التي تعني اليقين والمعرفة والاستتارة والحجة الواضحة غير عمياء، التي لم يتصف بها رسول الله ﷺ من ورقة بن نوفل، بل اتصف بها والساء تعدُّه نبياً ورسولاً، كان ذا بصيرة وهو يستلم الرسالة وهو يُبلِغها، وإلا كيف تكلف السماء من لا بصيرة له؟! ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. ومن قوله تعالى في الآية ٥٧ الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

لقد كان ﷺ على بيان وبرهان وحجة واضحة من ربه تعالى، لا يُربكه وحيتها ولا يُقلقه.

ولكن أه آه من أمر المحدثين! فكما قدّم بعضهم خدمات جليلة في نقل التراث الروائي وحفظه، فإنَّ لبعضهم إساءات كبرى بحقِّ صاحب هذا التراث، صارت مدعاةً للمغرضين والغاوين، ومادةً لأقلام ولأجهزة مُلئت خبثاً وبغضاً، وأدلةً لبعض المستشرقين، للطعن برسالته ﷺ وبالقرآن الكريم، وإذا ما اطلع عليها الغيور لأدرك مدى الجريمة، التي تراوحتها تلك الأجهزة والمناهج والأقلام لتوهين رسالة

الإسلام والقدح برسوله ﷺ وكتابه المبارك؛ مستفيدةً من روايات من هنا وهناك مختلفة أو مرسله أو ضعيفة، اخترقت التراث الروائي، وروج لها ذكرها من قبل بعض أئمة الحديث في مصادرهم دون تحقيق وتدقيق ودراسة لمدى ملائمة متونها لمقام النبوة والبعثة المباركة؛ ولبادئ الدين الحنيف ومقاصد الشريعة،...

توفي ورقة بعد أن صار شيخاً كبيراً أعمى، إما بعد أن شهد المبعث النبوي، وإما قبل أن يؤمر النبي بالإنذار...<sup>١</sup>

### عبيد الله بن جحش بن رباب

ابن أسد بن خزيمه، أمه أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ وعبيد الله هذا، رفض ما عليه قريش في الجاهلية من دين، وبقي في مكة، لم يخرج منها يلتمس ديناً آخر، ولما بُعث رسول الله ﷺ أسلم الرجل هو وأخوته قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، فكان من السابقين للإسلام في مكة، ومن أوائل الصحابة.. ثمّ هاجر مع من هاجر من المسلمين في الهجرة الثانية إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة النبوية المباركة، ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وهناك تُوفي عبيد الله، وبقيت زوجته وله بنت منها.. واختلفت الأخبار في شأنه وهو في مهجره: أولاً: أنه تنصّر قبل وفاته، أو أنه مات مسلماً. ثانياً: زواج الرسول ﷺ من أم حبيبة. فمع الاتفاق على أن رسول الله ﷺ خلف عبيد الله على امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، لكن اختلفت الأخبار في وقته بعد وقعة الخندق، أو بين السنة السادسة أو السابعة من الهجرة النبوية، أو بعد زواجه ﷺ بابنت عمته زينب بنت جحش أخت عبيد الله هذا، وفي مكان العقد؛ في الحبشة، أو بعد أن رجعت إلى المدينة، واختلفت أيضاً في الذي ولي نكاحها؛ النجاشي نفسه أو غيره..

حفظاً  
٢٠١٠

١. انظر السيرة النبوية، لابن هشام ١: ٢٣٨؛ سير أعلام النبلاء، للذهبي ٢: خديجة أم المؤمنين؛ تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠ هـ)؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي (ت ٩١١ هـ): ١ سورة العلق.

ولكن الكلام، كل الكلام، في أن عبيد الله مات في الحبشة مسلماً، أو مات نصرانياً، بمعنى أنه ارتد عن إسلامه حتى عدّ في الخبر أول مرتد من الإسلام، فعلى قول ابن إسحاق: فلما قدمها تنصّر وفارق الإسلام، حتى هلك هناك نصرانياً. أي أنه تنصّر إما بداية وصوله أو بعبده بقليل، والأخبار في هذا الشأن كثيرة، وهي لا تخلو من وهن وضعف وإرسال واضطراب، وأن أغلبها ما إن يذكر ارتداد الرجل وتنصّره، إلا وأشاد بإسلام زوجته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وبصبرها وثبات موقفها على الإسلام وتمسكها به. وذكر ما رآته في منامها في قصة تنصّر زوجها، وفي خطبتها وزواجها من الرسول ﷺ مما قد يثير الشك في أن هناك يداً أمويةً دسّت نفسها في التأكيد على ذلك، وهذه فقرات اخترناها من الأخبار: (... فتنصّر زوجها بالحبشة و مات بها، وأبت أن تنصّر وثبتت على إسلامها ففارقها.. ثم تنصّر وارتد عن الإسلام ومات هناك، وثبتت أم حبيبة على الإسلام.. فتنصّر وراودها على النصرانية، فأبت وصبرت على دينها و مات زوجها.. فتنصّر زوجها بالحبشة و مات بها وأبت هي أن تنصّر وثبتت على إسلامها ففارقها «فهلك». ثم افتتن وتنصّر ومات نصرانياً، وأثبت الله الإسلام لأم حبيبة، وعن طريق إسماعيل بن عمرو بن سعيد الأموي، قال: قالت أم حبيبة: رأيت في المنام كأن زوجي عبيد الله بن جحش بأسوأ صورة، ففزعت فأصبحت، فإذا به قد تنصّر، فأخبرته بالمنام، فلم يحفل به، وأكبّ على الخمر حتى مات، فأتاني آتٍ في نومي، فقال: يا أمّ المؤمنين! ففزعت، فما هو إلا أن انقضت عدتي، فما شعرت إلا برسول النجاشي يستأذن، فإذا هي جارية له يقال لها: أبرهة، فقالت: إن الملك يقول لك وكلي من يزوجك، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص بن أمية فوكلته، فأعطيت أبرهة سوارين من فضة، فلما كان العشي، أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين، فحضروا، فخطب النجاشي، فحمد الله وأثنى عليه وتشهد، ثم قال: أما بعد فإن رسول الله ﷺ كتب إليّ أن أزوجه أم حبيبة فأجبت، وقد أصدقتهما عنه أربعمائة دينار ثم سكب الدنانير. فخطب خالد فقال: قد أجبت إلى ما

دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة وقبض الدنانير، وعمل لهم النجاشي طعاماً فأكلوا. قالت أم حبيبة: لما وصل إليّ المال، أعطيت أبرهة منه خمسين ديناراً. قالت: فردتها عليّ، وقالت: إن الملك عزم عليّ بذلك، وردت عليّ ما كنت أعطيتها أولاً، ثم جاء تني من الغد بعود وورس وعنبر وزباد كثير، فقدمت به معي على رسول الله ﷺ... إلى غير ذلك من الفقرات).

ومن الأخبار ما عن ابن إسحاق: وأما عبيد الله بن جحش، فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة؛ فلما قدمها تنصر، وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانياً. ثم قال: فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال: كان عبيد الله بن جحش - حين تنصر - يمرُّ بأصحاب رسول الله ﷺ، وهم هنالك من أرض الحبشة، فيقول: فقحنا وصأصأتم، أي أبصرنا وأتمت تلمسون البصر، ولم تبصروا بعد. وذلك أن ولد الكلب إذا أراد أن يفتح عينيه لينظر صأصأً لينظر. وقوله: «فقح» فتح عينيه. وذكر ابن عبد البر أن: ... عبيد الله بن جحش تنصّر بأرض الحبشة، ومات بها نصرانياً، وبانت منه امرأته أم حبيبة ...

فيما حديث عائشة يختلف عن ذلك حيث قالت: هاجر عبيد الله بأم حبيبة بنت أبي سفيان، وهي امرأته إلى أرض الحبشة، فلما قدم الحبشة مرض، فلما حضرته الوفاة، أوصى إلى رسول الله ﷺ، فتزوج رسول الله أم حبيبة، وبعث معها النجاشي شرحبيل بن حسنة. وقال عنه شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط البخاري.

و ابن حجر نسب تنصره إلى ما يُقال: إنه قد تنصّر ..

وعن عروة عن أم حبيبة أنّها كانت تحت عبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوّجها النجاشي النبي ﷺ وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة.

ومن الأخبار الأخرى ما قاله ابن إسحاق: وحدثني محمد بن علي بن حسين: أن رسول الله ﷺ بعث فيها إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري، فخطبها عليه النجاشي فزوجه إياها، وأصدقها عن رسول الله ﷺ أربع مئة دينار...

جعفر بن محمد عن أبيه قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية إلى النجاشي خطب عليه أم حبيبة، وأصدقها من عنده أربع مئة دينار. أي عن أبي جعفر الباقر كما ذكر الذهبي: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية إلى النجاشي يخطب عليه أم حبيبة، فأصدقها من عنده أربع مئة دينار، وقيل عقد عليها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية وأمهرها النجاشي عن رسول الله ﷺ وفي خبر تزوجها رسول الله ﷺ وهي بالحبيشة زوجها منه عثمان بن عفان، وفي خبر آخر حين رجعت إلى المدينة، فخطبها رسول الله ﷺ فزوجه إياه عثمان بن عفان.

وقال أبو نعيم في الدلائل: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأصدقها عنه أربع مئة دينار، وبعث بها إليه. وقال: كان ذلك في سنة ست من الهجرة بعد رجوعه من خيبر، ولا أعلم في ذلك خلافاً.

ولما بلغ أبا سفيان بن حرب نكاح النبي ﷺ ابنته، قال: ذاك أو ذلك الفحل لا يقدر أنفه أي لا يضرب أنفه ولا يكف وذلك لكونه كريماً. ومعنى هذا أن الزواج تم قبل فتح مكة سنة ٨ هجرية، وأبو سفيان على كفره.

وأمر عبيد الله بن جحش، لا يخلو من تساؤل واستغراب خاصة إذا نظرنا إلى قول ابن إسحاق: فلما قدمها تنصّر وفارق الإسلام، حتى هلك هناك نصرانياً مرةً أخرى، لوجدنا أن عبيد الله تنصّر عند قدومه الحبيشة، أو بعيد قدومه أي في سنة هجرته وهي الخامسة من البعثة، وعلى رأي ابن عبد البر... وبانت منه امرأته أم حبيبة.. أي لم تبق على ذمته. وهنا يرد هذا السؤال: والنبي ﷺ لا بد أنه علم بارتداد الرجل، فكيف

يتركها وشأنها حتى السنة السادسة أو السابعة من الهجرة النبوية؟! اللهم إلا أن يكون ارتداده وقع قبيل السنة السادسة، بمعنى بعد أن قويت شوكة الإسلام وتأسست دولته في المدينة المنورة، فهو وإن كان ممكناً أن يقع الارتداد، لكنه أمرٌ يعوزه الدليل الصحيح ..

ولا أدري، فلعلّ قوله كما في الخبر: «فقحنا وصأصأتم، أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر، ولم تبصروا بعد..»، أنه وجد الحبشة وملكها وأخلاقه، كما وصفها رسول الله ﷺ عندما أمر المسلمين بالخروج من مكة مهاجرين إلى الحبشة: «فإنَّ بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، وإنه يحسن الجوار»، فتأثر ومال إلى دينها! ولكن كيف يكون ذلك ويترك إسلامه، وهو يرى تأثير ملك الحبشة بالإسلام خاصة بعد خطبة جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه المعروفة بمضامينها العالية، حتى وردت أخبار بإسلام النجاشي؟!

ثم متى شرعت أحكام الارتداد في العهد المكي، والإسلام بعدُ ضعيفاً في سنواته الأولى، ولم يتمكن من بعض النفوس، حتى تبين من عبيد الله زوجته بعد أن قال كلمة الكفر، وكفر بعد إسلامه وهجرته إلى الحبشة؟!

أو كان الارتداد فضلاً عن أحكامه يطلق في تلك الفترة على من ارتدَّ في إسلامه أو تركه؟! فضلاً عن أن آيات الارتداد نزلت في المدينة المنورة: (البقرة: ٢١٧، آل عمران: ٩٠، المائدة: ٥٤، محمد: ٢٧، الممتحنة: ١٠).

ولماذا لم يلتمس النصرانية خارج مكة كورقة بن نوفل، وهي قريبة منه؟ أيتنصَّر وهو الذي هجر ما عليه قومه من الشرك وعبادة الأصنام، وكان يبحث عن الحنيفة الحقَّة؟! أيتنصَّر بعد إسلامه وقد وجد ما كان ينتظره في مكة عند رسول الله ﷺ وفي بعثته التي كان يترقبها حتى اليهود والنصارى، وهو يعلم بذلك؟ أيتنصَّر الرجل وهو الباحث عن الحقيقة، وقد وجدها برسول الله ﷺ وآمن بها، وتحمل الهجرة من أجلها،

فكان من المهاجرين إلى الحبشة هو وزوجته وأخوه عبد الله بن جحش، وفي قول كان معهم أخ ثالث اسمه عبد بن جحش؟ أيتنصر وهو من عائلة عرفت بإسلامها وإخلاصها لرسول الله ﷺ، حتى أنها تركت كل شيء وهاجرت...؟

وهناك من استدلل بها جرى من حوار بين هرقل وأبي سفيان، وكان إذ ذاك مشركاً، حين سأله هرقل عمن آمن برسول الله ﷺ: «هل يرد أحدٌ منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه»؟

فأجاب أبو سفيان: لا...»

ولو كان عبيد الله قد تنصر؛ لوجدها أبو سفيان فرصة للنيل من النبي ﷺ ودعوته، كما فعل لما سُئل: «فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها؟ قال: ولم تمكّني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة». ولا يمكن القول بأنّ أبا سفيان لم يعلم برّدّة عبيد الله - لو صحّت - لأنه والد زوجته أم حبيبة.

هذا وأنّ أخبار ارتداد عبيد الله حتى وإن اشتهرت، فأولاً ربّ مشهور لا أصل له، وثانياً لا تخلو من إرسال وضعف في سندها، واضطراب واختلاف في متنها، ولعلّ أغلبها لا تثبت عند التحقيق، شأنها شأن كثير من الأمور التي عقلت بالدين والعقائد والوقائع التاريخية التي ما إن يضع المحقق الخبر الأمين يده عليها حتى تتساقط وتتهاوى! وثالثاً: أنّ عبيد الله ثبت إسلامه وثبتت هجرته إلى الحبشة بعد أدبّة قريش لهم، وأخبار ارتداده هذا حالها، وبالتالي فلا يصحّ نقض إسلامه بها، وحتى لو شككنا فاستصحاب إسلامه جار هنا، ولا يعني أنّ الارتداد لم يقع لبعض من أسلموا، لا، وقع كما وقع النفاق لبعضهم، لكن هذا ليس مبرراً لاتهام الرجل بالتنصر بعد إسلامه، وحتى لا يظلم وهو في قبره - والله أعلم به منا - فالأمر يتعلق بما نُقل، وما نُقل قد لا يخلو من آفات، ويحتاج إلى مزيد تحقيق سنداً ومتمناً؛ اكتفي بهذا لأنّ البحث قد يطول.



ولنعم ما قاله العراقي في ألفيته في السيرة:

وليعلم الطالب أن السيراً  
تجمع ما صحَّ وما قد أنكر<sup>١</sup>.

### عثمان بن الحويرث بن أسد

ابن عبد العزى بن قصي، وهو شاعر جاهلي، عرف بالظرافة، وكان يقال لعثمان هذا: البطريق، ولا عقب له، وإنه طمع في الرئاسة وخطط لها، فلم يجد إلا التنصر وسيلة لها، فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر، وحسنت منزلته عنده، وله مع قيصر قصة طويلة، ملخصها أن قيصر كان قد توجَّ عثمان وولاه أمر مكة، فلما جاءهم بذلك، أنفوا من أن يدينوا الملك، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى: ألا إنَّ مكة حي لقاح لا تدين لملك، فلم يتم له ما أراد، وقيل غير ذلك، ولما امتنعت قريش من أن يتملكها من قبل قيصر، رجع إلى الشام ليموت فيها مسموماً، سمَّه عمرو بن جفنة الغساني.

فذلك حيث يقول ورقة بن نوفل:

هل أتى ابنتي عُثْمَانُ أَنْ أباهما      حانت منيته بجانب الفرصد  
ركب البريد مخاطراً عن نفسه      ميت المنية للبريد المقصد  
فلأبكين عُثْمَانَ حَقَّ بكائه      ولأنشدن عمراً وإن لم ينشد<sup>٢</sup>.

١ . انظر في هذا السيرة النبوية، لابن هشام ١ : ٢٢٣؛ الاستيعاب، بهامش الإصابة ٢ : ٢٦٣؛ الإصابة ؛ طبقات ابن سعد ٨ : ٩٨؛ فتح الباري؛ صحيح البخاري في كتاب بدء الوحي، عن ابن عباس؛ البداية والنهاية، لابن كثير ٤ : كتاب بعث رسول الله ﷺ إلى ملوك الآفاق وكتبه إليهم؛ التقاسيم والأنواع، ابن حبان ١٣ : ٣٨٥ رقم ٦٠٢٧ تحقيق شعيب الأرنؤوط، وقال عنه: إسناده صحيح على شرط البخاري؛ وابن حبان في صحيحه؛ الكشف؛ للزمخشري تحقيق كل من عادل أحمد، وعلي محمد، ومشاركة الدكتور فتحي عبد الرحمن، الجزء ٦ : ٩٣ الهامش ٩٢، سورة الممتحنة. وغير ذلك من المصادر.

٢ . انظر الروض الأنف؛ المنمق في أخبار قريش: قصته الطويلة مع قيصر؛ تاريخ دمشق، لابن عساكر، ذكر من اسمه عثمان. الفرصد: موضع في الشام.

## قُسَّ بن ساعدة بن عمرو

ابن عدي بن مالك من قبيلة إياد، أو هو قس بن ساعدة بن حذاقة بن زهر بن أياد بن نزار. ترك وجوداً واضحاً لا في التراث قبل الإسلام فقط، بل وفيما بعد البعثة النبوية المباركة، فهو أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية، حتى راح شعراؤها تضرب فيه الأمثال (أحكم من قس .. وأقول من قس ..).

قال فيه أعشى قيس:

وأحكم من قس وأجراً ملّذي      بنذي الغيل من خفان أصبح خادراً

وقال الخطيئة:

وأقول من قس وأمضى إذا مضى      من الرمح إذ مسّ النفوس نكالها

طالت حياته حتى قيل: وصلت إلى ستمائة سنة وأكثر، توفي قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة، وفيما يعتقد كلام مختلف: كان نصرانياً، وأنه أسقف كعبة نجران، وكانت العرب تعظمه قساً .. لم يكن له صلة بنجران ويُرجّح أنه من الحنيفية .. فكان على ملّة إبراهيم عليه السلام الحنيفية، يدعو إلى توحيد الله وعبادته، يؤمن بالبعث بعد الموت .. فيما الشهرستاني وكما يبدو من منهجه، حين يذكر من كان يؤمن بالله واليوم الآخر و ينتظر النبوة قبل البعثة النبوية، يُكثر من كلماتهم شعراً ونثراً؛ ليستدل بها على اعتقاداتهم تلك.

فيقول: ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر و ينتظر النبوة، وكانت لهم سنن وشرائع قد ذكرناها .. فممن كان يعرف النور الظاهر، والنسب الطاهر، ويعتقد الدين الحنيفي، و ينتظر المقدم النبوي: زيد بن عمرو بن نفيل، كان يسند ظهره إلى الكعبة، ويقول:

أيها الناس هلموا إليّ، فإنّه لم يبقَ على دين إبراهيم أحدٌ غيري.

وسمع أمية بن أبي الصلت يوماً ينشد:

كَلَّ دِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ زُورٍ

فَقَالَ لَهُ: صَدَقْتَ.

وَقَالَ زَيْدٌ أَيْضاً:

فَلَنْ تَكُونَ لِنَفْسِكَ مِنْكَ وَاقِيَةٌ يَوْمَ الْحِسَابِ إِذَا مَا يَجْمَعُ الْبَشَرَ

ثُمَّ يُوَاصِلُ كَلَامَهُ فَيَذْكُرُ قَسَ بْنَ سَاعِدَةَ حَيْثُ يَقُولُ: وَمَنْ كَانَ يَعْتَقِدُ التَّوْحِيدَ وَيُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ قَسَ بْنَ سَاعِدَةَ الْأَيْدِي، قَالَ فِي مَوَاعِظِهِ: كَلَّا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ! لِيَعُودُونَ مَا بَادَ، وَلِئِنْ ذَهَبَ لِيَعُودُنَّ يَوْمًا.

وَقَالَ أَيْضاً: كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ - لَيْسَ بِمَوْلُودٍ وَلَا وَالِدٌ - أَعَادَ وَأَبْدَى - وَإِلَيْهِ الْمَأْبُودَاتُ.

وَأَنْشَدَ فِي مَعْنَى الْإِعَادَةِ: يَا بَاكِي الْمَوْتِ وَالْأَمْوَاتِ فِي جَدَثٍ - عَلَيْهِمْ مِنْ بَقَايَا بَزْهِمْ خَرَقٍ - دَعَاهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يَصْحَاحُ بِهِمْ - كَمَا يَنْبَغُ مِنْ نَوْمَاتِهِ الصَّعَقِ - حَتَّى يَجِيئُوا بِحَالٍ غَيْرِ حَالِهِمْ - خَلَقَ مَضَى ثُمَّ هَذَا بَعْدَ ذَا خَلَقُوا - مِنْهُمْ عِرَاءٌ وَمِنْهُمْ فِي ثِيَابِهِمْ - مِنْهَا الْجَدِيدُ وَمِنْهَا الْأَزْرَقُ الْخَلْقُ<sup>١</sup>.

كَمَا أَنَّ السِّيَوطِيَّ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَنْ رَحِمَ اللَّهُ قَسًا، كَانَ عَلَى دِينِ أَبِي إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمٍ».

وَعَنِ الشَّيْخِ الصَّدُوقِ: قَسَ بْنَ سَاعِدَةَ بْنِ حِذَاقَةَ بْنِ زَهْرَ بْنِ أَيَادِ بْنِ نَزَارٍ، أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِالْبَعْثِ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَوَّلُ مَنْ تَوَكَّأَ عَلَى عَصَا، وَيُقَالُ: إِنَّهُ عَاشَ سِتْمِائَةَ سَنَةً، وَكَانَ يَعْرِفُ النَّبِيَّ ﷺ بِاسْمِهِ وَنَسَبِهِ، وَيَبْشُرُ النَّاسَ بِخُرُوجِهِ، وَكَانَ يَسْتَعْمَلُ التَّقِيَّةَ وَيَأْمُرُ بِهَا فِي خِلَالِ مَا يَعِظُ بِهِ النَّاسَ ..

يَنْتَظِرُ ظُهُورَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَبْعَثِهِ، أَدْرَكَهُ وَلَكِنْ قَبْلَ بَعْثِهِ، حَالُ الْمَوْتِ بَيْنَهُ وَبَيْنِهَا، وَلِأَنَّهُ مَتَّقِنٌ ذَلِكَ كَانَ يَقُولُ مَبْشَرًا بِهِ: إِنَّ لِلَّهِ دِينَاً خَيْرًا مِنَ الدِّينِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ.

١ . الملل والنحل، للشهرستاني ١ : ٨٦ - ٨٧ .

فعن ابن عباس قال: «إن قس بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه - وأشار بيده إلى مكة - قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمتُ أني أعيش إلى مبعثه؛ لكنتُ أول من يسعى إليه»<sup>١</sup>.

وله كلام جليل يتوفر على خطبة وشعر روي عن الفريقين. فعن الشيخ الصدوق قال: حدثنا أبي رضي الله عنه، قال: حدثنا سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم بفناء الكعبة يوم افتتح مكة، إذ أقبل إليه وفد فسلموا عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من القوم؟ قالوا: وفد بكر بن وائل، قال: فهل عندكم علم من خبر قس بن ساعدة الأيادي؟

قالوا: نعم يا رسول الله، قال: فما فعل؟ قالوا: مات، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحمد لله ربّ الموت وربّ الحياة، كلّ نفس ذائقة الموت، كأني أنظر إلى قس بن ساعدة الأيادي، وهو بسوق عكاظ على جبل له أحمر، وهو يخطب الناس، ويقول: اجتمعوا أيها الناس، فإذا اجتمعتم فأنصتوا، فإذا أنصتتم فاسمعوا، فإذا سمعتم فعدوا، فإذا وعيتم فاحفظوا، فإذا حفظتم فاصدقوا، ألا إنه من عاش مات، ومن مات فات، ومن فات فليس بآت، إن في السماء خبراً وفي الأرض عبراً، سقف مرفوع، ومهاد موضوع، ونجوم تمور، وليل يدور، وبحار ماء (لا) تغور، يخلق قس ما هذا بلعب، وإن من وراء هذا لعجباً، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟ يخلق قس يميناً غير كاذبة إن الله ديناً هو خير من الدين الذي أنتم عليه».

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفيكم من يحفظ شعره؟»

فقال بعضهم: سمعته يقول: ...

وأيضاً روي هذا أو مثله عن الصحابي عبادة بن الصامت، وكذا مع اختلاف عن ابن عباس الذي قال: قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ فقال: «أيكم يعرف قس بن ساعدة الأيادي»؟ قالوا: كلنا نعرفه يا رسول الله. قال: «فما فعل»؟ قالوا: هلك. قال: «فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام، وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس، وهو يقول: يا أيها الناس اجتمعوا، واستمعوا، وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لغيراً...». قال ﷺ: رحم الله قساً يحشر يوم القيامة أمة وحده، هل فيكم أحد يحسن من شعره شيئاً؟ فأنشد بعضهم قوله:

في الذاهبين الأولين      ن من القرون لنا بصائر  
لما رأيت موارداً      للموت ليس لها مصادير  
ورأيت قومى نحوها      يسعى الأصغر والأكابر  
لا يرجع الماضي إليّ      ولا من الباقين غابر  
أيقنت أنني لا محال      لة حيث صار القوم صائر

وقال الجاحظ في البيان والتبيين:

ولأياد في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس بن ساعدة، وموقفه على جملة بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر تصويبه، وهذا إسناد تعجز عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمال. وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجة للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص، وإيانه بالبعث. ولذلك كان خطيب العرب قاطبةً.

ونسبوا أيضاً إلى النبي ﷺ أنه سأل وفد أياد قبيلة قس: هل ترك وصية؟ قالوا:

وجدوا عند رأسه صحيفة فيها من إنشائه الأبيات التالية من الشعر:

يا ناعي الموت والملحود في جدث  
عليهم من بقايا قولهم خرق  
دعهم فإنَّ لهم يوماً يصاح بهم  
فهم إذا اتبهبوا من نومهم أرقوا  
حتى يعودوا بحال غير حالهم  
خلقاً جديداً كما من قبله خلقوا  
منهم عراة ومنهم في ثيابهم  
منها الجديد ومنها المنهج الخلق.

وأما ما جاء عن الشيخ الصدوق باختلاف يسير في هذه الآيات مع زيادة؛ أنه قال: حدثنا الحسن بن عبد الله بن سعيد... عن هشام، عن أبيه (المрад بهشام هشام بن محمد بن السائب الكلبي)، كما يظهر من كتاب مقتضب الأثر: ٣٧؛ الهامش. أنَّ وفداً من أياد قدموا على رسول الله ﷺ، فسألهم عن حكم قس بن ساعدة، فقالوا: قال قس:

يا ناعي الموت والأموات في جدث  
عليهم من بقايا بزهم خرق  
دعهم فإنَّ لهم يوماً يصاح بهم  
كما ينه من نوماته الصعق  
منهم عراة ومنهم في ثيابهم  
منها الجديد ومنها الأورق الخلق  
حتى يعودوا بحال غير حالتهم  
خلق جديد وخلق بعدهم خلقوا.

مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، وآيات في أثر آيات، وأموات بعد أموات، ضوء وظلام، وليال وأيام، وفقير وغني، وسعيد وشقي، ومحسن ومسيء، نبأ لأرباب الغفلة، ليصلحن كلَّ عامل عمله، كلا بل هو الله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدا، وإليه المآب غدا، وأما بعد، يا معشر أياد أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ أين الحسن الذي لم يشكر والقبيح الذي لم ينقم؟ كلا ورب الكعبة ليعودن ما بدا، ولئن ذهب يوم ليعودن يوم!

حكمه: وينسب الرواة إلى قس بن ساعدة حكماً كثيرة منها: من عيرك شيئاً ففيه مثله، ومن ظلمك وجد من ظلمه، وإذا خاصمت فاعدل وإذا قلت فاصدق ولا تستودعن شرك أحداً، وقالوا: إنه أول من قال: البينة على من ادعى واليمين على من

أنكر، وهو أول من قال: أما بعد.. وعن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: جمع قس بن ساعدة ولده فقال: إنَّ المعاتكفيه البقلة وترويه المذقة. ومن عيرك شيئاً ففيه مثله، ومن ظلمك وجد من يظلمه، متى عدلت على نفسك عدل عليك من فوقك، فإذا نهيت عن شيء فابدء بنفسك، ولا تجمع ما لا تأكل ولا تأكل ما لا تحتاج إليه، وإذا ادخرت فلا يكونن كنزك إلا فعلك، وكن عفا العيلة مشترك الغنى تسد قومك، ولا تشاورن مشغولاً وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فهماً، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً، ولا تضعن في عنقك طوقاً لا يمكنك نزعها إلا بشق نفسك، وإذا خاصمت فاعدل، وإذا قلت فاقصد، ولا تستودعن أحداً دينك وإن قربت قرابته، فإنك إذا فعلت ذلك لم تنزل وجلاً، وكان المستودع بالخيار في الوفاء بالعهد، وكنت له عبداً ما بقيت، فإن جنى عليك كنت أولى بذلك، وإن وفي كان الممدوح دونك، عليك بالصدقة فإنها تكفر الخطيئة.. فكان قس لا يستودع دينه أحداً، وكان يتكلم بما يخفى معناه على العوام، ولا يستدركه إلا الخواص...<sup>١</sup>

### زيد بن عمرو بن نفيل

ابن عبد العزى القرشي العدوي، ابن عم عمر بن الخطاب، والخطاب هذا هو ابن نفيل كان عم زيد وأخاه لأمه، وهو قول ابن إسحاق الآتي: (وكان الخطاب بن نفيل عمه وأخاه لأمه).

وقفه: فقد كان من فعل الجاهلية أن ينكح الابن امرأة أبيه إن توفي، ونستكشف من وصف الآية لهذا النكاح، الذي نهت عنه بكونه ﴿فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، كم

١ . انظر الأعلام، للزركلي؛ كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق ١: ١٩٥ باب ١٠ رقم: ٢٢،

في خبر قس بن ساعدة الأيادي؛ والبيان والتبيين، للجاحظ؛ والبداية والنهاية، لابن كثير ٢: ذكر قس بن ساعدة الأيادي؛ الطبراني في كتابه المعجم الكبير؛ والحافظ البيهقي في كتابه دلائل النبوة .

هو عمل قبيح بل في غاية القبح والشناعة! فأُمُّ زيد وهي جيداء بنت خالد بن جابر كانت عند نفيل بن عبد العزّي، فولدت له الخطاب (أبو عمر الخليفة الثاني) ثمّ مات عنها نفيل، فتزوجها ابنه عمرو، فولدت له زيداً، فالخطاب بن نفيل يكون عمّ زيد، ويكون أخاه لأُمّه. وكان هذا نكاحاً ينكحه أهل الجاهلية حتى نزلت هذه الآية ٢٢ من سورة النساء: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتَأً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾. في قول: أي لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم. وقيل: ما وطأ آباؤكم من النساء؛ حرّم عليكم ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من نكاح امرأة الأب...

وزيد هذا هو والد الصحابي سعيد بن زيد، الذي أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً؛ لذلك فهو يعدُّ أحد السابقين الأولين إلى الإسلام.

ولعلّ نفيلاً هذا يُعدُّ أبرز أولئك الأربعة في البحث عن التوحيد، وقد فارق ما عليه قومه من عبادة الأوثان، وأكل الميتة والدم وما يذبح على الأوثان، وراح ينهى عن قتل الموءودة. ويُقال: إنه وقف فلم يدخل في يهوديّة ولا نصرانيّة، وظلّ يبحث عن الحنيفية الحقّة، حتى قال: أعبد ربّ إبراهيم، وبادى قومه بعبادته ما هم عليه.

قال ابن إسحاق: وحدثني هشام بن عروة بن أبيه عن أمّه أسماء بنت أبي بكر، قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحداً على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أنى أعلم أي الوجوه أحبّ إليك عبدتُك به، ولكنني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته!

وقد نُقل عنه شعر كثير، منه ما قاله في فراق دين قومه، وما كان لقي منهم في

ذلك:

أربياً واحداً أم ألف ربّ أدينُ إذا تقسّمت الأمور؟



عزلتُ اللات والعُزَّى جميعاً  
فلا العُزى أدين ولا ابتيها  
ولا هبلاً أدين وكان ربّاً  
عجبتُ وفي الليالي معجبات  
بأنَّ الله قد أفنى رجالاً  
(ألم تعلم بأنَّ الله أفنى  
وأبقى آخرين ببرِّ قوم  
وبينا المرءُ يفتري ثاب يوماً  
ولكن أعبدُ الرحمن ربِّي  
فتقوى الله ربَّكم احفظوها  
ترى الأبرارَ دارهم جنان  
وخزيٌّ في الحياة وإن يموتوا

كذلك يفعل الجلدُ الصبورُ  
ولا صنمَي بني عمرو أزورُ  
لنا في الدهر إذ حلمي يسيرُ  
وفي الأيام يعرفها البصيرُ  
كثيراً كان شأنهم الفجورُ  
رجالاً كان شأنهم الفجورُ؟  
فيربل منهم الطفل الصغيرُ  
كما يترّوح الغصن المطيرُ  
ليغفر ذنبي الربُّ الغفورُ  
متى ما تحفظوها لا تبوروا  
وللكفار حاميةٌ سعيروُ  
يلاقوا ما تضيق به الصدورُ

### زيدٌ يستقبل القبلة:

كان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال: لبيك حقاً حقاً، تعبداً ورقاً.

عذتُ بما عاذ به إبراهيم  
أنفى لك اللهمَّ عان راغم  
مستقبل الكعبة وهو قائم  
مهما نُجشمني فإني جاشم

وله أيضاً:

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمت  
دحاها فلما رأها استوت  
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمت  
إذا هي سيقت إلى بلدة  
له الأرضُ تحمل صخرًا ثقالا  
على الماء أرسى عليها الجبالا  
له المزنُ تحمل عذبا زلالا  
أطاعت فصبت عليها سجالا

وكدليل آخر يسوقونه على أنه كان من الموحدين، أنه قال:

إِلَى اللَّهِ أَهْدِي مِدْحَتِي وَتَنَائِيَا  
إِلَى الْمَلِكِ الْأَعْلَى الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ  
أَلَّا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِيَّاكَ وَالرَّدَى  
وَإِيَّاكَ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ  
حَنَائِيكَ إِنَّ الْجِنَّ كَانَتْ رَجَاءَهُمْ  
رَضِيْتُ بِكَ - اللَّهُمَّ - رَبًّا فَلَنْ أَرَى  
وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مَنْ وَرَحْمَةٍ  
فَقُلْتُ لَهُ: أَذْهَبَ وَهَارُونَ فَادْعُوا  
وَقُولَا لَهُ: أَنْتَ سَوَيْتَ هَذِهِ  
وَقُولَا لَهُ: أَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ  
وَقُولَا لَهُ: أَنْتَ سَوَيْتَ وَسُطْهَا  
وَقُولَا لَهُ: مَنْ يُرْسِلُ الشَّمْسَ غُدْوَةً  
وَقُولَا لَهُ مَنْ يُنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى  
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُوُوسِهِ  
وَأَنْتَ بِفَضْلٍ مِنْكَ نَجَّيْتَ يُونُسًا  
وَإِنِّي وَلَوْ سَبَّحْتُ بِاسْمِكَ رَبَّنَا  
فَرَبَّ الْعِبَادِ أَلْقَ سَيِّئًا وَرَحْمَةً

وَقُولَا رَضِيًّا لَا يَنِي الدَّهْرَ بَاقِيَا  
إِلَهُ وَلَا رَبُّ يَكُونُ مُدَانِيَا  
فَأَنَّكَ لَا تَخْفَى مِنْ اللَّهِ خَافِيَا  
فَإِنَّ سَبِيلَ الرُّشْدِ أَصْبَحَ بَادِيَا  
وَأَنْتَ إلهِي رَبَّنَا وَرَجَائِيَا  
أَدِينُ إلهَا غَيْرِكَ - اللَّهُ - ثَانِيَا  
بَعَثْتَ إِلَى مُوسَى رَسُولًا مُنَادِيَا  
إِلَى اللَّهِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ طَافِيَا  
بِلَا وَتَدِ حَتَّى اطْمَأْنَنْتَ كَمَا هِيَا  
بِلَا عَمَدٍ أَرْفُقُ إِذَا بِكَ بَانِيَا  
مُنِيرًا إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ هَادِيَا  
فَيُصْبِحُ مَا مَسَّتْ مِنَ الْأَرْضِ ضَاحِيَا  
فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا  
وَإِنِّي ذَلِكَ آيَاتٍ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا  
وَقَدْ بَاتَ فِي أَعْصَافِ حُوتٍ لِيَالِيَا  
لَأَكْثَرُ - إِلَّا مَا غَفَرْتَ - خَطَائِيَا  
عَلَيَّ وَبَارِكْ فِي بَنِيٍّ وَمَالِيَا

### يُعَاتِبُ زَوْجَتَهُ !

وله شعر يُعَاتِبُ فِيهِ زَوْجَتَهُ صَفِيَّةَ بِنْتِ الْحَضْرَمِيِّ عَلَى اتِّفَاقِهَا مَعَ الْخُطَابِ فِي

مَعَاكِسَتِهِ :

يَقُولُ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَكَانَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو قَدْ أَجْمَعَ الْخُرُوجَ مِنْ مَكَّةَ ؛ لِيَضْرِبَ فِي  
الْأَرْضِ يَطْلُبُ الْحَنِيفِيَّةَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَكَانَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ الْحَضْرَمِيِّ ، كَلِمًا رَأَتْهُ قَدَ



عن الحنيفة دين إبراهيم، فقال: إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يملك عليه اليوم، ولكن قد أظلل زمان نبي يخرج من بلادك، التي خرجت منها، يبعث بدين إبراهيم الحنيفة، فالحق بها، فإنه مبعوث الآن، هذا زمانه.

وقد كان شاماً اليهودية والنصرانية، فلم يرض شيئاً منهما، فخرج سريعاً، حين قال له ذلك الراهب ما قال، يريد مكة، حتى إذا توسط بلاد لحم عدوا عليه فقتلوه.

وفي خبر أن زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فقال لزيد: من أين أقبلت يا صاحب البعير؟ قال: من بنية إبراهيم، قال: وما تلتمس؟ قال: الدين، قال: ارجع فإنه يوشك أن يظهر الذي تطلب في أرضك، فرجع يريد مكة حتى إذا كان بأرض لحم عدوا عليه فقتلوه، وكان يقول: أنا على دين إبراهيم عليه السلام، وأنا ساجد على نحو البنية، التي بناها إبراهيم عليه السلام، وكان يقول: إنا ننتظر نبياً من ولد إسماعيل من ولد عبد المطلب! وراح ورقة بن نوفل بن أسد بيكيه، حيث قال:

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما	تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك رباً ليس ربُّ كمثلته	وترك أوثان الطواغي كما هيا
وإدراكك الدين الذي قد طلبته	ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت في دار كريم مقامها	تُعَلِّل فيها بالكرامة لاهيا
تُلاقى خليل الله فيها ولم تكن	من الناس جباراً إلى النار هاويا
وقد تُدرك الانسان رحمة ربّه	ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

وفي تفسير الرازي؛ نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في زيد بن عمرو بن نفيل: «يبعثه الله أمة وحده»<sup>١</sup>.

١. السيرة النبوية، لابن هشام ١: ٢٣٠-٢٣٢. والهوامش؛ بلوغ الأرب، للألوسي ٢: ٢٤٩؛ بحار الأنوار، للعلامة المجلسي ١٥: ٢٠٤ و ١٥: ٢٢٠ رقم ٣٩ عن الخرائج؛ تفسير مفاتيح الغيب؛ التفسير الكبير، الرازي: النحل ١٢٣.

## وهناك غير هؤلاء الأربعة؛ منهم: أمية بن أبي الصلت

عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عزة بن عوف بن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن أبو عثمان. ويقال: أبو الحكم الثقفي. ويقال: اسم أبي الصلت: ربيعة بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن ثقيف.. وأم أمية هذا هي رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف.

كان أبوه من الشعراء المشهورين بالطائف، وكان أمية أشعرهم، وأنه رغب عن عبادة الأوثان، وقرأ الكتب، وكان يُبَشِّرُ:

ألا رسول لنا منا يخبرنا ما بعد غايتنا من رأس نجرانا

ويُخبر بأن نبياً يبعث قد أظلم زمانه، وأنه ابن عبد المطلب وبصفته، ويردف ذلك بقوله: .. ولئن ظهر وأنا حيٌّ؛ لأطلبن من الله عزَّ وجلَّ في نصره عذراً!

ولما سُئِلَ عن رسول الله ﷺ بعد بعثته المباركة: ما تقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على الحقِّ! ولطالما كان يدعو الآخرين لاتباعه لو ظهر: «أما إنه حقٌّ؛ فاتبعه»! ولكنه نكص على عقبيه، وذلك لما سمع بخروج النبي ﷺ وقصته، حين قيل له: يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته! كفر حسداً له!! وفي خبر لما ظهر ﷺ امتنع عن اتباعه، فقيل له: ما يمنعك من اتباعه؟ لأنه كان يتمنى أن يكون ذلك النبي من ثقيف، لأنه كان يُحدِّث نفسه أن يكون هو.. وذلك هو قوله لما أخبره النصراني عن النبي الذي يُنتظر، وأنه رجل من العرب، وأنه من أهل بيت تحبُّه العرب، وأنه من إخوانكم من قريش! فأصابني والله شيءٌ ما أصابني مثله قط. وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة. وكنت أرجو أن أكون إياه!

لأنه وكما يقول: ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف، إني كنتُ أحدثهن أني هو، ثم يرينني تابِعاً لَغلام من بني عبد مناف!

وفي خبر أن أمية بعد أن أقام بالبحرين ثماني سنين، وتنبأ رسول الله ﷺ قدم مكة،

فلقي رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام، وقرأ عليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* يَسْ \* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حتى فرغ منها، وثب أمية يجرُّ رجله، فتبعته قريش تقول: ما تقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على الحقِّ! قالوا: فهل تتبعه؟

قال: حتى أنظر في أمره. ثم خرج إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم، فلما أخبر بقتلى بدر ترك الإسلام، ورجع إلى الطائف. فمات بها. فمن تمنَّعه هذا، يبدو أن تبشيره بالنبي ﷺ، وأنه حقُّ يدعو لاتباعه؛ لظنه أنه هو المقصود بالنبوة، ولما تبين أنه محمد بن عبد الله ﷺ، تغيَّر موقفه إلى الرفض والإنكار والكفر به. فلم ينتفع بعلم ولا بمعرفة، صحيح أن العلم أمر محبوب، وطلبه والسعي إليه ممدوح، والانتفاع به ونشره بين الناس زكاة له ونماء، فإذا أوتي بعضُ علماً فخليق به أن يأخذ به إلى ما يُفيده في دنياه وآخرته، أن يقوده إلى الحقِّ تعالى وإلى الهدى والرشاد، إلا أن هذا الرجل وإن ترك عبادة الأصنام، وتحنَّف، وراح يبحث عن الحقِّ، واتصل إليه - كما يقول ابن كثير - علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاته المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قبحه الله. وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه، فإن له أشعاراً ربانية وحكماً وفصاحة، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

لقد كان واحداً من أسباب ذكرت لنزول الآية:

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

الْعَاوِينَ﴾<sup>١</sup>



قومه فمات كافراً. وكان يذكر في شعره الثواب والعقاب، واسم الله وأسماء الأنبياء، وقد قال فيه النبي ﷺ: «كاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم»، وروي عن أمية أنه قال لما مرض مرض موتة: «أنا أعلم أن الحنيفة حق، ولكن الشك يداخني في محمد». فمعنى ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ أن الله ألهم أمية كراهية الشرك، وألقى في نفسه طلب الحق، ويسر له قراءة كتب الأنبياء، وحبب إليه الحنيفة، فلما انفتح له باب الهدى، وأشرق نور الدعوة المحمدية، كابر وحسد وأعرض عن الإسلام، فلا جرم أن كانت حاله أنه انسلخ عن جميع ما يسر له، ولم ينتفع به عند إبان الانتفاع، فكان الشيطان هو الذي صرفه عن الهدى، فكان من الغاوين، إذ مات على الكفر بمحمد ﷺ.

لقد ظلّ مناصراً لمشركي مكة ومتابعاً لأخبارهم ومواقفهم ومباركاً لها ضدّ رسول الله ﷺ ودعوته المباركة، وله مرثاةٌ بليغةٌ طويلةٌ لقتلى المشركين في معركة بدر الكبرى بلغت ثلاثةً وثلاثين بيتاً، ذكرها ابن إسحاق، وقال ابن هشام: تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله ﷺ وهذا بعض منها:

ألا بكيتُ على الكرا	م بني الكرام أولي المباح
كبكا الحمام على فرو	ع الأيك في الغصن الجوانح
يكيين حرّى مستكي	ناتٍ يُرحن مع الروائح
أمثالهنّ الباكي	ت المعولات من النوائح
من يبكهم يبك على	حُزن ويصدق كلّ مباح
ماذا بيدر فالعقد	قل من مرازية ججاجح
شُمت وشبان بها	ليل مغاوير وحاح
ألا ترون لما أرى	ولقد أبان لكلّ لامح؟!!
أن قد تغير بطنُ مك	ة فهي موحشة الأباطح
من كلّ بطريق لبط	سريق نقيّ الود واضح؟!!

قال ابن كثير: ... حمله كثرة جهله وقلّة عقله على مدح المشركين وذمّ المؤمنين،



واستوحش بمكة من أبي جهل بن هشام وأضرابه من الكفرة اللئام والجهلة الطغام، ولم يستوحش بها من عبد الله ورسوله وحببيه وخليله فخر البشر ومن وجهه أنور من القمر؛ ذي العلم الأكمل والعقل الأشمل..، ومن بقية أصحابه الغرّ الكرام، الذين هاجروا من دار الكفر والجهل إلى دار العلم والإسلام...<sup>١</sup>

قال مؤلف الكتاب: وله أشعار كثيرة اقتصرنا على هذا منها، وكان له ولد يقال له: الفاسم، وتعاطى الشعر الجيد.

وإن مات كافراً، إلا أنه ترك وراءه شعراً كثيراً مفعماً بمبادئ جليلة، وقيم عالية، ومعاني كبيرة، تفوح منها رائحة الحنيفة المباركة، لهذا تجدني حريصاً على نقل أشعاره لولا خوف الإطالة، وكيف لا، وقد دعت أشعاره رسول الله ﷺ ليقول كلمته الشهيرة فيه: «أمن شعره وكفر قلبه»!

كان ذلك حين استنشد ﷺ أخته الفارعة بنت أبي الصلت؛ وقد قدمت عليه ﷺ بعد فتح الطائف شعره قائلاً:

«هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً؟» فكان مما أنشدته قصيدة طويلة حتى أتت على آخرها، وقالوا: إن أمية بن أبي الصلت، قال هذه القصيدة في أول المبعث، يذكر فيها دين الإسلام، ونبوة نبينا محمد ﷺ، وأثار قدرة الله تعالى، وما ينتهي إليه أمر الدنيا من الزوال والمعاد، وإلى الخلود في الجنة والنار، وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك على ما كان قد قرأه في الكتب المتقدمة، وكان يتوهم أن نبياً سيبعث، فيكون هو ذلك، فلما بلغه خروج نبينا محمد ﷺ انقمع وحسده.

فأنشدته قصيدة طويلة جداً، كان منها:

لَكَ الْحَمْدُ وَالنَّعْمَاءُ وَالْفُضْلُ رَبَّنَا وَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْكَ جَدًّا وَأَجْدُ

١ . انظر السيرة النبوية، لابن هشام ٣ : ٣١ شعر أمية بن أبي الصلت في رثاء قتلى بدر من قريش؛ البداية والنهاية، لابن كثير ٣ ؛ فصل رثاء المشركين قتلاهم يوم بدر، بتلخيص .

مَلِيكَ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيَّمِنٌ  
فسبحان من لا يقدر الخلق قدره  
وسبحان ربّي خالق النور لم يلد  
وسبحانه من كلّ إفك وباطل  
هو الله باري الخلق والخلق كلهم  
هو الصمد الحي الذي لم يكن له  
وأنى يكون الخلق كالخالق الذي  
ويفنى ولا يبقى سوى القاهر الذي  
ألا أيها القلب المقيم على الهوى  
عن الحقّ كالأعمى المحيط عن الهوى  
بنور على نور من الحقّ واضح  
من الحقد نيران العداوة بيننا  
لآدم لما أكمل الله خلقه  
فقال عدو الله للكبر والشقا  
فأخرجه العصيان من خير منزل  
علينا ولا يألو خبالاً وحيلة  
جحيماً تلظى لا تفتّر ساعة  
فمالك في الشيطان والناس أسوة  
هو القائد الداعي إلى النار جاهداً  
وما لك من عذر بطاعة فاسق

ثم أنشدته قصيدته الأخرى التي يقول فيها:

لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ  
ومن هو فوق العرش فرد موحد  
ولم يك مولوداً بذلك أشهد  
ولا والد ذو العرش أم كيف يولد  
إمءاء له طوعاً جميعاً وأعبد  
من الخلق كفاءً قد يضاهيه مضد  
يدوم ويبقى والخليقة تنفذ؟!  
يميت ويحيى دائماً ليس يمهد  
إلى أي حين منك هذا التمرد  
وقد جاءك النجد النبيّ محمد  
دليل على طرق الهدى ليس يخمد  
لئن قال ربّي للملائكة اسجدوا  
فخروا له طوعاً سجوداً وركد  
أطين على نار السموم يسود  
فذاك الذي في سالف الدهر يحقد  
ليوردنا منها الذي يتورد  
ولا الحر منها آخر الدهر يبرد  
إذا ما صليت النار بل أنت أبعد  
ليوردنا منها الذي يتورد  
ولا بلظى نار عملت لها يد

فَشَقِيٌّ مُعَذَّبٌ وَسَعِيدٌ  
يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَالسِّرَارَ الْخَفِيًّا

يَوْمَ يَأْتِي الرَّحْمَنُ وَهُوَ رَحِيمٌ      إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا  
رَبِّ إِنَّ تَعَفُّفَ الْمَعَاوَةِ ظَنِّي      أَوْ تُعَاقِبَ فَلَمْ تُعَاقِبْ بَرِيًّا

وأما الإمام النويري، فقد ذكر ذلك مع اختلاف بسيط وزيادة هذين البيتين:  
يوم آتیه مثل ما قال فردا      ثم لا أدري راشداً أم غويا  
أسعيداً إسعاده أنا أرجو      أو مهانا ألقى من العذاب فريا

وفي خبر آخر أنشدته أيضاً ثلاثة عشر بيتاً، منها:

ما رغب النفس في الحياة وإن      تحيا قليلاً فالموت سائقها  
يوشك من فرّ من منيته      يوماً على غرة يوافقها  
من لم يمت غبطة يمت هرماً      للموت كاس والمرء ذائقها.

... قال رسول الله ﷺ: «يا فارعة كان مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ

منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين».

وله قصيدة لأمية من ثمانية وثلاثين بيتاً، كان مطلعها:

إله محمد حقاً إلهي      وديني دينه غير انتحال

ومما جاء فيها:

إله العالمين وكلّ أرض      وربّ الراسيات من الجبال  
بناها وابتنى سبعاً شداداً      بلا عمد يزين ولا دجال  
وسواها وزينها بنور      من الشمس المضيئة والهلال  
ومن شهب تلالاً في دجاها      مراميها أشدّ من النصال  
وأنشأ المزن تدلج بالروايا      خلال الرعد مرسله الغوال  
ليسقي الحرث والأنعام منها      سجال الماء حالاً بعد حال  
وشقّ الأرض فانجست عيوناً      وأنهاراً من العذب الزلال  
وكلّ معمر لا بدّ يوماً      وذي دنيا يصير إلى زوال

ويفنى بعد جدته ويبلى  
 وصرنا في مضاجعنا رميمًا  
 ونادى مسمع الموتى فجئنا  
 وأعطى كلّ إنسان كتابًا  
 فلا إنسان بين الناس يرجى  
 سوى التقوى ولا موت يرجى  
 وسيق المجرمون وهم عراة  
 إلى نار تحش بصم صخر  
 إذا نضجت جلودهم أعيدت  
 ونادوا مالكاّ ودعوا ثبورًا  
 إذا استسقوا هناك سقوا حميمًا  
 شرابهم مع الزقوم فيها  
 فليسوا ميتين فيستريحوا  
 وحلّ المتقون بدار صدق  
 ظلال بين أعناب ونخل  
 لهم ما يشتهون وما تمنوا  
 ومن إستبرق يكسون فيها  
 وأشربة من العسل المصفى  
 وكأس لذة لا غول فيها  
 سوى الباقي المقدس ذي الجلال  
 إلى يوم القيامة ذي الويال  
 من الأجداث كالشنن العجال  
 مييناً باليمين وبالشمال  
 ولا رحم تمت إلى وصال  
 سوى الربّ الرحيم من الموالي  
 إلى دار المقامع والنكال  
 وما الأوصال من أهل الضلال  
 كما كانت وعاداً في سفال  
 وعجوا من سلاسلها الطوال  
 على ما في البطون من الأكال  
 ضريع يجتلي عقد الخبال  
 وكلّهم حرّ النار صالي  
 وعيش ناعم تحت الظلال  
 وبنيان من الفردوس عالي  
 من اللذات فيها والجمال  
 عطايا جمّة من ذي المعالي  
 ومن لبن ومن ماء السجال  
 من الخمر المشعشة الحلال

وفي الخبر لما حضرت وفاته، قال عند المعاينة من الرجز:

إن تعف ياربيّ تعف جما وأي عبد لك لا آلا

ومما قاله من الخفيف:

كل عيش وان تطاول دهرًا صائر مرة إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي      في تلال الجبال أرعى الوعولا  
كل عيش وإن تطاول دهرًا      صائر مرة إلى أن يزولا  
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي      في قلال الجبال أرعى الوعولا  
فاجعل الموت نصب عينيك واحذر      غولة الدهر إن للدهر غولا<sup>١</sup>.

### ومثله : أبو عامر بن صيفي الراهب

فعن سعيد بن المسيب أن الآية نزلت في أبي عامر بن صيفي الراهب، واسمه النعمان الخزرجي، وكان يلقب بالراهب في الجاهلية؛ لأنه قد تنصّر في الجاهلية، ولبس المسوح، وزعم أنه على الحنيفية، فلما قدم النبي ﷺ المدينة دخل على النبي ﷺ فقال: «يا محمد، ما الذي جئت به؟! قال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم! قال: فإني عليها! فقال النبي ﷺ: لست عليها؛ لأنك أدخلت فيها ما ليس منها». فكفر، وخرج إلى مكة يحرّض المشركين على قتال النبي ﷺ ويخرج معهم، إلى أن قاتل في حنين بعد فتح مكة، فلما انهزمت هوازن يئس وخرج إلى الشام، فمات هنالك.

يقول الدكتور شوقي ضيف: ولم يكن هؤلاء الحنفاء في مكة وحدها، فقد كانوا منتشرين في القبائل، إذ تعدّ كتب الأدب والتاريخ منهم قس بن ساعدة الأيادي، وأبا ذرّ الغفاري، وصرمة بن أبي أنس أحد بني النجار في المدينة، وعامر بن الظرب العدواني، وخالد بن سنان العبسي، وأمّية بن أبي الصلت الثقفي، وعمير بن جندب الجهني..

١ . تفسير القرآن العظيم؛ البداية والنهاية، لابن كثير الجزء الثاني، باب أخبار أمية بن أبي الصلت الثقفي؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي؛ مجمع البيان، للشيخ الطبرسي: الآية ١٧٥- ١٧٧ الأعراف؛ نهاية الأرب في فنون الأدب، للإمام النويري باب خبر مدينة بلقاء وخبر بلعم بن باعورا وما يتصل بذلك؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، كتاب النساء وكناهن؛ بحار الأنوار، العلامة المجلسي ٢٢ : ٢٥؛ صفايا حكم الأشعار وغيرها، باب الفاء، الفارعة بنت أبي الصلت .

ثمَّ يقول: ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام مثل عبد المطلب بن هاشم، وقيس بن عاصم التميمي، وحنظلة الراهب بن أبي عامر غسيل الملائكة. ويحتم ذلك بقوله: ولا نرتاب في أن صنيع هؤلاء إنما كان شكاً في حياتهم الدينية، وكلُّ ذلك يؤكِّد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال، فما انبلجت أضواء الإسلام حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجاً.

أقول: حصل هذا بعد ثلاث وعشرين سنة من الدعوة والمعاناة والجهاد..!

\* \* \*

١ . السيرة النبوية، لابن هشام ٣: ٣١ شعر أمية بن أبي الصلت في رثاء قتلى بدر؛ البداية والنهاية، لابن كثير ٣، فصل رثاء المشركين قتلاهم يوم بدر بتلخيص؛ تاريخ الأدب، العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ١: ٩٧ .